كتاب موسى المفقود ـ الجزء الثّالث عشر.

بحث وإعداد: ميرنا جردلي.

تدقيق وإشراف: الأستاذ موّفّق البغداديّ.

القُرْآنُ وَالكِتَابُ:

وَمَعَ نِهَايَةِ هَذَا البَحْثِ، كَانَتْ لَنَا وَقَفَاتٌ طَوِيلَةٌ عَلَى بَعْضِ الآيَاتِ. فَقَدْ كَانَ لِمَوْضُوعِ الكِتَابِ أَبْوَابٌ مُغْلَقَةٌ فُتِحَتْ لَنَا بِفَضْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَمَسْنَا كَيْفَ أَنَّنا كُلَّمَا دَعَوْنَا اللهَ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَالتَّوَكُّلِ زَادَنَا مِنْ فَضْلِهِ وَعِلْمِهِ. وَكَأَنَّ آيَاتِ اللهِ كَشَفَتْ عَنْ أَسْرَارِهَا وَمَدْلُولَاتِهَا عِنْدَمَا نَفَضْنَا عَنْ عُقُولِنَا رَوَاسِبَ كُنَّا نَظُنُّهَا صَحِيحَةً. فَعِنْدَمَا تَوَكَّلْنَا عَلَى اللهِ وَاسْتَمْسَكْنَا بِكِتَابِ اللهِ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ، رَأَيْنَا كَرَمَ اللهِ عَلَيْنَا الَّذِي أَنَارَ عُقُولَنَا وَفَتَحَ بَصَائِرَنَا. وَكَمَا قُلْتُ فِي بَدَايَةِ هَذَا البَحْثِ، بِأَنَّهُ حَجَرُ أَسَاسٍ، كُلُّ مُتَدَبِّرٍ يَضِيفُ عَلَيْهِ أَوْ يُصْلِحُ فِيهِ مِمَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ، كَيْ يَزْدَادَ غِنًى وَنَزْدَادَ مَعْرِفَةً، فَنَكُونَ مِنْ أُولِي العِلْمِ وَالأَلْبَابِ.

طَبْعًا كَانَ لَنَا تَسَاؤُلَاتٌ كَثِيرَةٌ مَرَرْنَا عَلَيْهَا، اسْتَطَعْنَا أَنْ نَتَبَيَّنَ حَقِيقَةَ بَعْضِهَا وَمَعْرِفَتَهَا، وَأُخْرَى مَا زَالَتْ قَيْدَ البَحْثِ وَالدِّرَاسَةِ. فَمَثَلًا مَرَرْنَا عَلَى آيَاتٍ لَاقَتْ مِنَّا اسْتِغْرَابًا، فَبَحَثْنَا فِيهَا وَوَصَلْنَا بِفَضْلِ اللهِ لِفَهْمِهَا. وَمِنْ هَذِهِ الآيَاتِ اسْتَطَعْنَا الوُصُولَ إِلَى الكَثِيرِ عَنِ الفَرْقِ بَيْنَ القُرْآنِ وَالكِتَابِ.

سُورَةُ يُوسُفَ: الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾.

سُورَةُ الحِجْرِ: الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾.

سُورَةُ النَّمْلِ: طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾.

نَرَى فِي هَذِهِ الآيَاتِ أَنَّ اللهَ تَارَةً يَذْكُرُ الكِتَابَ، وَتَارَةً أُخْرَى القُرْآنَ. وَصَارَ مَعْرُوفًا لَدَيْنَا بِأَنَّهُ لَا تُطَابِقُ بِمُفْرَدَاتِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ، وَخَاصَّةً لِسَانِ القُرْآنِ. إِذًا فَمَا دَلَالَاتُ هَذِهِ المُفْرَدَاتِ فِي هَذِهِ الآيَاتِ؟ وَلِمَاذَا ذُكِرَتْ كِلَاهُمَا فِي هَذِهِ المَوَاضِعِ وَغَيْرِهَا إِذَا كَانَ المَقْصُودُ وَاحِدًا؟

بِدَايَةً، مِنَ المُهِمِّ أَنْ نُلَاحِظَ الرَّابِطَ القَوِيَّ بَيْنَ أَوَائِلِ آيَاتِ سُورَةِ الدُّخَانِ وَأَوَائِلِ آيَاتِ سُورَةِ القَدْرِ، وَكَيْفَ أَنَّ هَذِهِ الآيَاتِ تَتَحَدَّثُ عَنِ الكِتَابِ وَلَيْسَ عَنِ القُرْآنِ.

سُورَةُ الدُّخَانِ: حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾.

سُورَةُ القَدْرِ: إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾.

نُلَاحِظُ أَنَّ المَعْنَى وَاحِدٌ فِي السُّورَتَيْنِ: يَتَحَدَّثُ اللهُ فِيهِمَا عَنْ إِنْزَالٍ عَظِيمٍ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ، وَهُوَ الكِتَابُ. هَذِهِ اللَّيْلَةُ المُبَارَكَةُ يُفْرَقُ فِيهَا كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، أَيْ تَحْدِيدُ مَقَادِيرِ اللهِ وَأَوَامِرِهِ، حَيْثُ تَتَنَزَّلُ فِيهَا المَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ لِتَنْفِيذِ هَذِهِ الأَوَامِرِ. وَوَصَفَهَا اللهُ بِأَنَّهَا لَيْلَةُ القَدْرِ، وَهَذِهِ اللَّيْلَةُ لَيْسَتْ مَجَرَّدَ لَيْلَةٍ نَزَلَ فِيهَا الكِتَابُ فَقَطْ، بَلْ هِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي يُفْرَقُ فِيهَا كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ مِنَ اللهِ، وَكُلُّ أَوَامِرِ اللهِ حَكِيمَةٌ، حَيْثُ تَتَنَزَّلُ المَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ بِأَمْرِ اللهِ لِتَنْفِيذِ مَا قَدَّرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِخَلْقِهِ وَفِي خَلْقِهِ. فَهِيَ لَيْلَةٌ تَتَجَلَّى فِيهَا مَشِيئَةُ اللهِ، وَتَتَحَرَّكُ فِيهَا سُنَنُهُ فِي مَلَكُوتِهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِهَذَا وُصِفَتْ بِلَيْلَةِ القَدْرِ، لِأَنَّهَا لَيْلَةُ التَّقْدِيرِ الإِلَهِيِّ الَّذِي يَمْتَدُّ أَثَرُهُ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وَقَدْ كَانَ نُزُولُ الكِتَابِ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَيْضًا فِي لَيْلَةِ القَدْرِ، إِذِ ارْتَبَطَ نُزُولُهُ بِأَعْظَمِ سُنَنِ اللهِ فِي هِدَايَةِ البَشَرِ، تَمَامًا كَمَا تَتَنَزَّلُ المَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ دَائِمًا لِتَنْفِيذِ أَوَامِرِ اللهِ فِي خَلْقِهِ. فَقَدْ نَزَلَ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِوَحْيِ اللهِ لِيَكُونَ هِدَايَةً وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ. - وَقَدْ يَكُونُ جِبْرِيلُ هُوَ رُوحٌ مِنَ اللهِ وَقَدْ لَا يَكُونُ، وَقَدْ يَكُونُ مَلَكًا وَقَدْ لَا يَكُونُ، وَلَكِنَّ الوَاضِحَ أَنَّهُ وَمِيكَالَ أَيْضًا مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللهِ المُكَرَّمَةِ المُشَرَّفَةِ وَعَظِيمَةِ الشَّأْنِ - إِذًا وَبِهَذَا النُّزُولِ تَلَاقَتْ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ مَشِيئَةُ اللهِ فِي تَدْبِيرِ الخَلْقِ مَعَ مَشِيئَتِهِ فِي إِنْزَالِ الهِدَايَةِ، فَكَانَتْ لَيْلَةً عَظِيمَةً وَمُبَارَكَةً تَتَجَلَّى فِيهَا قُدْرَةُ اللهِ وَحِكْمَتُهُ فِي تَوْجِيهِ أَحْوَالِ المَلَكُوتِ وَالبَشَرِ.

أَمَّا فِي سُورَةِ البَقَرَةِ، نَجِدُ أَنَّ الآيَاتِ تَتَحَدَّثُ بِوَضُوحٍ عَنْ نُزُولِ القُرْآنِ فِي رَمَضَانَ: شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴿١٨٥﴾.

سُورَتَا الدُّخَانِ وَالقَدْرِ تَتَحَدَّثَانِ عَنْ إِنْزَالِ الكِتَابِ كَامِلًا، وَهُوَ الصِّيغَةُ المَكْتُوبَةُ لِلْكِتَابِ، وَالَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى قَلْبِ الرَّسُولِ كَمَا جَاءَ فِي هَذِهِ الآيَاتِ **فِي سُورَةِ البَقَرَةِ: قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾.**

سُورَةُ النَّحْلِ: قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾.

أَمَّا سُورَةُ البَقَرَةِ فَتَتَحَدَّثُ عَنْ نُزُولِ القُرْآنِ تَحْدِيدًا، أَيْ بِدَايَةَ نُزُولِهِ عَلَى النَّبِيِّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَمِنْ ثُمَّ اسْتَمَرَّ نُزُولُهُ مُفَرَّقًا خِلَالَ فَتْرَةِ البَعْثَةِ.

هَذَا الفَهْمُ سَيَجْعَلُنَا نُدْرِكُ أَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا كَبِيرًا بَيْنَ الكِتَابِ وَالقُرْآنِ، وَأَنَّ الكِتَابَ نَزَلَ كَامِلًا وَمَرَّةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ القَدْرِ، بَيْنَمَا القُرْآنُ نَزَلَ تَدْرِيجِيًّا ابْتِدَاءً مِنْ رَمَضَانَ. وَالغَالِبُ عِنْدِي أَنَّ القُرْآنَ كَانَ يَنْزِلُ فَقَطْ فِي رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ عَامٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

القُرْآنُ:

وَالآنَ نَسْتَعْرِضُ الآيَاتِ لِفَهْمِ هَذِهِ النُّقْطَةِ الأَسَاسِيَّةِ، وَهِيَ مَحْوَرُ هَذَا البَحْثِ، وَهِيَ أَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ كِتَابٌ فِي بَدَايَةِ البَعْثَةِ وَالدَّعْوَةِ، بَلْ بَدَأَ الوَحْيُ بِالقُرْآنِ، وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْهِ تَدْرِيجِيًّا عَلَى شَكْلِ قُرْآنٍ مَنْطُوقٍ، وَفِي رَمَضَانَ.

سُورَةُ الإِنْسَانِ: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾.

سُورَةُ المَائِدَةِ: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾.

سُورَةُ الفُرْقَانِ: وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾.

سُورَةُ الإِسْرَاءِ: وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾.

سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾.

سُورَةُ طَهَ: وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ: وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾.

سُورَةُ التَّوْبَةِ: يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾.

سُورَةُ التَّوْبَةِ: وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾.

سُورَةُ التَّوْبَةِ: وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾.

لَاحِظْ، فِي سِيَاقِ نُزُولِ القُرْآنِ التَّدْرِيجِيّ، تُشِيرُ الآيَةُ ١٢٦ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ إِلَى أَنَّ المُنَافِقِينَ كَانُوا يُخْتَبَرُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، مِمَّا قَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الوَحْيَ كَانَ يَنْزِلُ عَلَى نَبِيِّنَا الكَرِيمِ عَلَى الأَقَلِّ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ عَامٍ، حَيْثُ تَأْتِي آيَاتٌ تَكْشِفُ حَقِيقَتَهُمْ أَوْ تَضَعُهُمْ أَمَامَ امْتِحَانٍ جَدِيدٍ. هَذَا التَّدَرُّجُ فِي النُّزُولِ لَمْ يَكُنْ مَجَرَّدَ تَتَابُعٍ زَمَنِيٍّ، بَلْ كَانَ جُزْءًا مِنْ حِكْمَةٍ إِلَاهِيَّةٍ تُرَبِّي النُّفُوسَ وَتُصْقِلُ الإِيمَانَ، فَيَضَعُهُمْ أَمَامَ فِتْنَةٍ تُمَيِّزُ الصَّادِقَ مِنَ الكَاذِبِ، وَبِالتَّالِي تَكُونُ اخْتِبَارًا لَهُمْ وَفُرْصَةً لِلتَّوْبَةِ لِمَنْ أَرَادَ الهِدَايَةَ، وَبِنَفْسِ الوَقْتِ تَكُونُ حُجَّةً عَلَى مَنِ اسْتَمَرَّ فِي نِفَاقِهِ أَوْ إِعْرَاضِهِ.

سُورَةُ الأَعْرَافِ: وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾.

سُورَةُ يُونُسَ: وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾.

سُورَةُ النَّمْلِ: وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾.

فِي هَذِهِ الآيَاتِ السَّابِقَةِ نُلَاحِظُ دِقَّةَ وَبَلَاغَةَ التَّعْبِيرِ القُرْآنِيِّ، فَالأَفْعَالُ "لَقِيَ، وَحَىَ، نَزَلَ" وَمُشْتَقَّاتُهَا، اسْتُعْمِلَتْ فِي صِيغَةِ المُضَارِعِ وَالمَاضِي مَعَ القُرْآنِ كَوْنِهِ أُنْزِلَ عَلَى دَفَعَاتٍ، بَيْنَمَا مَعَ الكِتَابِ فَلَمْ تُسْتَخْدَمْ هَذِهِ الأَفْعَالُ بِصِيغَةِ المُضَارِعِ أَبَدًا، فَكَانَتْ دَائِمًا بِالمَاضِي لِلدِّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الكِتَابَ عِنْدَمَا نَزَلَ فَإِنَّهُ قَدْ نَزَلَ كَامِلًا وَمَرَّةً وَاحِدَةً.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يَتَلَقَّى وَحْيَ القُرْآنِ لَفْظًا أَوْ مَقْرُوءً، وَيَتْلُوهُ "لَفْظًا" أَوْ "قِرَاءَةً" عَلَى النَّاسِ بِحَسَبِ المَوَاقِفِ فِي زَمَانِهِ، أَوْ كَآيَاتٍ لِلتَّعْرِيفِ بِاللهِ وَالدِّينِ وَالخَلْقِ وَالقَصَصِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. بِالمُقَابِلِ فَنُلَاحِظُ المُصْطَلَحَاتِ الَّتِي اسْتُعْمِلَتْ لِلْمُتَلَقِّي: "السَّمْعُ"، "الإِنْصَاتُ"، "الإِصْغَاءُ"، وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

سُورَةُ الأَنْعَامِ: وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾.

سُورَةُ الأَعْرَافِ: وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾.

سُورَةُ يُونُسَ: قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾.

سُورَةُ يُونُسَ: وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾.

سُورَةُ النَّمْلِ: إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾.

سُورَةُ النَّمْلِ: وَأَنْ أَتْلُوَ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾.

سُورَةُ الرَّعْدِ: وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾.

سُورَةُ الإِسْرَاءِ: قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾.

سُورَةُ سَبَإٍ: وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾.

سُورَةُ الإِسْرَاءِ: وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾.

كَانَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- حِينَ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، يَتْلُو مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ عَلَىٰ قَوْمِهِ. فَالقُرْآنُ فِي الأَصْلِ كَلَامٌ مَسْمُوعٌ وَمَقْرُوءٌ، وَلَٰكِنَّ بَعْضَ المُنَافِقِينَ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ كَانُوا يُظْهِرُونَ الطَّاعَةَ فِي حَضْرَةِ النَّبِيِّ، بَيْنَمَا فِي بَاطِنِهِمْ يَضْمُرُونَ الكُفْرَ وَالعِصْيَانَ. فَمَا إِنْ يَخْرُجُوا مِنْ مَجَالِسِهِ حَتَّىٰ يُبَيِّتُوا أَمْرًا يُخَالِفُ مَا قَالُوهُ لَهُ أَوْ قَالَهُ لَهُمْ، فَيُدَبِّرُونَ مَا يُنَاقِضُ تِلْكَ الطَّاعَةَ وَيَخْطُطُونَ لِعِصْيَانِ أَمْرِهِ. وَفِي المُقَابِلِ، فَقَدْ كَانَ المُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ الَّذِينَ كُلَّمَا سَمِعُوا كَلَامَ رَبِّهِمْ خَضَعُوا وَانْقَادُوا لَهُ دُونَ تَرَدُّدٍ.

سُورَةُ النِّسَاءِ: مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ: وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾.

سُورَةُ الانشِقَاقِ: وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾.

سُورَةُ الزُّمَرِ: ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾.

سُورَةُ الجِنِّ: قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾.

مِنْ صِفَاتِ القُرْآنِ:

سُورَةُ البَقَرَةِ: شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾.

سُورَةُ الأَنْعَامِ: قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾.

سُورَةُ يُونُسَ: وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾.

سُورَةُ الإِسْرَاءِ: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾.

سُورَةُ فُصِّلَتْ: حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾.

سُورَةُ الزُّمَرِ: قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾.

سُورَةُ يسٓ: يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾.

سُورَةُ مَرْيَمَ: فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾.

سُورَةُ النَّمْلِ: إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾.

سُورَةُ الجِنّ: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾.

سُورَةُ صٓ: صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾.

سُورَةُ يسٓ: وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾.

سُورَةُ الرُّومِ: وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾.

سُورَةُ قٓ: نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾.

سُورَةُ الزُّخْرُفِ: فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِيَ إِلَيْكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾.

سُورَةُ الزُّخْرُفِ: حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾.

فِي القُرْآنِ، يَأْتِي فِعْلُ "جَعَلَ" لِيُشِيرَ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ. فَعِنْدَمَا يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: "جَعَلْنَاهُ"، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّيْءَ كَانَ مَوْجُودًا فِي صُورَةٍ مُعَيَّنَةٍ، ثُمَّ حَوَّلَهُ اللهُ إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى.

عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ، فِي **سُورَةِ الزُّخْرُفِ: إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾.**

نَجِدُ أَنَّ اللهَ اسْتَخْدَمَ "جَعَلْنَاهُ" لِلدِّلَالَةِ عَلَى أَنَّ القُرْآنَ حُوِّلَ إِلَى لِسَانٍ عَرَبِيٍّ بَعْدَ أَنْ كَانَ بِلِسَانٍ آخَرَ أَوْ صِيَاغَةٍ أُخْرَى غَيْبِيَّةٍ لَا نَعْلَمُهَا.

وَكَذَلِكَ فِي **سُورَةِ فُصِّلَتْ: وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾.**

يَتَضَحُّ لَنَا أَنَّ "جَعَلْنَاهُ" هُنَا تَعْنِي أَنَّ القُرْآنَ كَانَ بِلِسَانٍ آخَرَ، وَلَكِنَّ اللهَ جَعَلَهُ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ، مِمَّا يُشِيرُ إِلَى تَحَوُّلِهِ مِنْ هَيْئَةٍ إِلَى أُخْرَى قَبْلَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَى النَّبِيِّ العَرَبِيِّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

سُورَةُ الشُّورَىٰ: وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾.

سُورَةُ الدُّخَانِ: فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾.

وَنُلَاحِظُ أَنَّنَا جَمِيعًا مَأْمُورُونَ بِتَدَبُّرِ القُرْآنِ وَتَرْتِيلِهِ:

سُورَةُ صٓ: كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾.

سُورَةُ النِّسَاءِ: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾.

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ: أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾.

سُورَةُ المُزَّمِّلِ: أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾.

وَمِنْ حِكْمَةِ اللهِ البَالِغَةِ أَنْ جَعَلَ القُرْآنَ مَحْفُوظًا فِي الصُّدُورِ، فَلَا يَشُوبُهُ التَّحْرِيفُ وَالكِتْمَانُ كَمَا حَصَلَ مَعَ كِتَابِ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَالتَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ. فَعِنْدَمَا نَزَلَتِ الكُتُبُ، وَخَاصَّةً كِتَابُ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، فَقَدِ اسْتَطَاعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَحْرِيفَهُ وَكَتْمَهُ وَإِخْفَاءَهُ وَنَبْذَهُ. وَلَكِنْ عِنْدَمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَعَلَى شَكْلِ قُرْآنٍ، أَصْبَحَ أَتْبَاعُ مُحَمَّدٍ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يَحْفَظُونَهُ وَيَعُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، وَأَصْبَحَ يَتَوَاتَرُ عَنِ

الآلَافِ ثُمَّ المَلَايِينِ وَمِئَاتِ المَلَايِينِ مِنَ البَشَرِ، وَبِالتَّالِي أَصْبَحَ مِنَ المُسْتَحِيلِ تَحْرِيفُهُ أَوْ كَتْمُهُ. فَكَانَ القُرْآنُ كَصِيغَةٍ مَقْرُوءَةٍ مِنْ أَهَمِّ الأَسَالِيبِ الَّتِي فَعَّلَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِحِفْظِ كِتَابِهِ مِنْ عَبَثِ العَابِثِينَ.

سُورَةُ العَنْكَبُوتِ: وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾.

إِذًا، القُرْآنُ كَانَ وَحْيًا يَتَنَزَّلُ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَلَمْ يَكُنْ كِتَابًا كَامِلًا فِي بَدَايَةِ البَعْثَةِ. وَهَذَا الفَرْقُ مُهِمٌّ جِدًّا لِفَهْمِ كَيْفِيَّةِ تَلَقِّي النَّبِيِّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لِلرِّسَالَةِ. وَهَذَا يَعُودُ لِلْبِيئَةِ الشَّفَوِيَّةِ لِلعَرَبِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، فَقَدْ كَانَ العَرَبُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ مُجْتَمَعًا يَعْتَمِدُ بِشَكْلٍ كَبِيرٍ عَلَى الذَّاكِرَةِ الشَّفَوِيَّةِ، وَكَانَ لَدَيْهِمْ قُدْرَةٌ عَلَى حِفْظِ الشِّعْرِ وَالخُطَبِ وَالقِصَصِ بِسُهُولَةٍ، وَكَانَ التَّلَقِّي الشَّفَوِيُّ جُزْءًا مِنْ ثَقَافَتِهِمْ وَسِمَتِهِمْ. لِذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ حَاجَةٌ مَاسَّةٌ إِلَى كِتَابٍ مَكْتُوبٍ فَوْرًا لِيُؤْمِنُوا أَوْ يَفْهَمُوا. فَكَانَ النَّبِيُّ يَتْلُو الآيَاتِ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَيْهِ، وَيَتِمُّ نَقْلُهَا شَفَوِيًّا بَيْنَ النَّاسِ فَتُحْفَظُ فِي الصُّدُورِ. وَهَذَا جُزْءٌ مِنْ سِرِّ قُوَّةِ الدَّعْوَةِ، حَيْثُ كَانَ القُرْآنُ لَهُ وَقْعٌ خَاصٌّ عَلَى السَّامِعِينَ، وَقَدْ صَاغَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِطَرِيقَةٍ مُتَنَاسِقَةٍ وَبِشَكْلٍ عَجِيبٍ بِحَيْثُ يُسَهِّلُ حِفْظَهُ عِنْدَ النَّاسِ.

كَمَا أَنَّ نُزُولَ القُرْآنِ عَلَى مَدَارِ ٢٣ سَنَةً كَانَ لَهُ حِكْمَةٌ إِلَاهِيَّةٌ. فَالقُرْآنُ نَزَلَ لِيُعَالِجَ قَضَايَا وَاقِعِيَّةً وَيُقَدِّمَ تَوْجِيهَاتٍ حَسَبَ الظُّرُوفِ الَّتِي كَانَ يَعِيشُهَا المُجْتَمَعُ. نُزُولُهُ المُتَدَرِّجُ كَانَ يُسَاعِدُ النَّاسَ عَلَى تَقَبُّلِ التَّغْيِيرَاتِ بِبُطْءٍ وَالتَّكَيُّفِ مَعَ الأَحْكَامِ وَالتَّعَالِيمِ الجَدِيدَةِ خُطْوَةً بِخُطْوَةٍ، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَنْزِلَ كِتَابٌ كَامِلٌ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَهُوَ مَا قَدْ يَكُونُ صَعْبًا عَلَى المُجْتَمَعِ آنَذَاكَ.

وَهَذِهِ الدَّعْوَةُ لِلإِسْلَامِ كَانَتْ تَدْرِيجِيَّةً. فَالنَّبِيُّ لَمْ يَبْدَأْ دَعْوَتَهُ بِشَكْلٍ عَامٍّ وَفَوْرِيٍّ لِجَمِيعِ النَّاسِ. فَفِي البِدَايَةِ، كَانَتِ الدَّعْوَةُ سِرِّيَّةً، وَكَانَ يَدْعُو الأَقْرَبَ إِلَيْهِ فَقَطْ، مِثْلَ زَوْجَتِهِ خَدِيجَةَ وَصَدِيقِهِ أَبِي بَكْرٍ وَابْنِ عَمِّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي

طَالِبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ-. ثُمَّ تَوَسَّعَتِ الدَّعْوَةُ بِشَكْلٍ تَدْرِيجِيٍّ إِلَى المُجْتَمَعِ. هَذَا التَّدَرُّجُ سَاعَدَ عَلَى بِنَاءِ قَاعِدَةٍ قَوِيَّةٍ قَبْلَ أَنْ يُوَاجِهَ المُجْتَمَعَ بِشَكْلٍ كَامِلٍ.

إِذًا، المَسْأَلَةُ لَمْ تَكُنْ فَقَطْ مُتَعَلِّقَةً بِوُجُودِ كِتَابٍ مُكْتَمِلٍ مُنْذُ البِدَايَةِ، بَلْ كَانَتْ مَزِيجًا مِنَ الحِفْظِ وَالتَّدَرُّجِ فِي الدَّعْوَةِ، مَعَ شَخْصِيَّةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَأَخْلَاقِهِ كَعُنْصُرٍ أَسَاسِيٍّ فِي إِقْنَاعِ النَّاسِ بِرِسَالَتِهِ.

كَانَ الوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- مُفَرَّقًا، وَفْقًا لِلظُّرُوفِ وَالمَوَاقِفِ الَّتِي تَسْتَدْعِي التَّوْجِيهَ الإِلَاهِيَّ، فَتَتَابَعَ نُزُولُهُ عَبْرَ مَرَاحِلَ مُخْتَلِفَةٍ، تَثْبِيتًا لِقَلْبِ النَّبِيِّ.

سُورَةُ الفُرْقَانِ: كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾.

وَقَدْ تَكَرَّرَ فِي القُرْآنِ اسْتِخْدَامُ الفِعْلِ المُضَارِعِ عِنْدَ الإِشَارَةِ إِلَى نُزُولِ الوَحْيِ، مِثْلَ "نُنَزِّلُ"، دِلَالَةً عَلَى اسْتِمْرَارِيَّةِ الحَدَثِ وَتَكْرَارِهِ.

سُورَةُ الإِسْرَاءِ: وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾.

الكِتَاب:

أَمَّا الكِتَابُ، فَهُوَ الصِّيغَةُ المَكْتُوبَةُ لِلْقُرْآنِ، وَقَدْ جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْ تَنْزِيلِهِ بِالفِعْلِ المَاضِي دَائِمًا، مِمَّا يُشِيرُ إِلَى نُزُولِهِ دَفْعَةً وَاحِدَةً عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- عَنْ طَرِيقِ رُوحِ القُدُسِ. وَهُنَا يُبْرَزُ الفَرْقُ بَيْنَ النُّزُولِ التَّدْرِيجِيِّ لِلْقُرْآنِ، وَبَيْنَ نُزُولِ الكِتَابِ عَلَى قَلْبِ رَسُولِنَا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَامِلًا وَمَرَّةً وَاحِدَةً. وَالآيَةُ التَّالِيَةُ تُؤَكِّدُ أَنَّهُ وَفِي بَدَايَةِ الدَّعْوَةِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ كِتَابٌ:

سُورَةُ النِّسَاءِ: يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾.

ثُمَّ نَزَلَ الكِتَابُ عَلَى قَلْبِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَمَعَ ذَلِكَ أَرَادَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنْ يَكُونَ مَكْتُوبًا كَمَا نَزَلَ عَلَى مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- كَمَا أَسْلَفْنَا سَابِقًا. فَقَدْ أَصْبَحْنَا نَعْلَمُ كَمْ وَكَيفَ كَانُوا يُجَادِلُونَ وَكَيفَ اسْتَمَرُّوا بِذَلِكَ.

سُورَةُ الأَعْرَافِ: وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾.

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ أَنَّهُ وَلَوْ كَانَ مَكْتُوبًا، فَسَيَسْتَمِرُّونَ بِعِنَادِهِمْ وَجِدَالِهِمْ.

سُورَةُ الأَنْعَامِ: وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾.

وَهُنَاكَ الكَثِيرُ مِنَ الآيَاتِ الَّتِي بَدَأَتْ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ الكِتَابَ نَزَلَ لَاحِقًا، نَذْكُرُ مِنْهَا:

سُورَةُ القَصَصِ: وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾.

ثُمَّ بَدَأَ الرَّسُولُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِي مَرْحَلَةٍ مَا بِكِتَابَةِ الكِتَابِ.

سُورَةُ الفُرْقَانِ: وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾.

وَأَيْضًا مِنْ خِلَالِ التَّأَمُّلِ فِي آيَاتِ سُورَةِ القَصَصِ، نَجِدُ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَصْبَحَ لَدَيْهِ كِتَابًا مَلْمُوسًا:

سُورَةُ القَصَصِ: فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾.

حَتَّى هُنَا بَدَأَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالمُقَارَنَةِ بَيْنَ كِتَابِ مُحَمَّدٍ وَكِتَابِ مُوسَى -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- وَالجِدَالِ فِي ذَلِكَ، فَتَحَدَّاهُمُ اللهُ بِأَنْ يَأْتُوا بِكِتَابٍ أَهْدَى مِنَ الكِتَابَيْنِ المَوْجُودَيْنِ. لَكِنَّ المُلفِتْ هُنَا هُوَ اسْتِخْدَامُ الفِعْلِ "أَتَّبِعْهُ" بِصِيغَةِ

المُضَارِعِ، مِمَّا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ النَّبِيَّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَصْبَحَ لَدَيْهِ بِالفِعْلِ كِتَابٌ قَائِمٌ بِذَاتِهِ، وَلَيْسَ فَقَطْ قُرْآنًا يَتَلَقَّاهُ شَفَوِيًّا.

وَأَضِفْ إِلَى هَذَا مَا جَاءَ فِي **سُورَةِ الأَحْقَافِ: قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾.**

وَتَتَوَالَى الآيَاتُ الَّتِي تُثْبِتُ أَنَّ مُحَمَّدًا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَصْبَحَ لَدَيْهِ كِتَابٌ كَامِلٌ. لَا نَعْلَمُ مَتَى نَزَلَ، وَقَدْ يَكُونُ هُنَاكَ إِشَارَاتٌ مُعَيَّنَةٌ تُدِلُّنَا عَلَى ذَلِكَ، وَالبَحْثُ فِي هَذَا يَطُولُ. فَلَوْ أَرَدْنَا أَنْ نُحَدِّدَ مَتَى نَزَلَ الكِتَابُ، فَعَلَيْنَا تَحْلِيلُ آيَاتِ الكِتَابِ كَامِلَةً.

النَّتِيجَةُ:

بَدَأَتِ الرِّسَالَةُ بِقُرْآنٍ أُوحِيَ عَلَى الرَّسُولِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لَفْظًا، وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأَخَذَ بِالتَّنَزُّلِ عَلَى مَدَى بِعْثَةِ الرَّسُولِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-. وَكَانَ يُحَاكِي -وَمِنْ ضِمْنِ مُحْتَوَاهُ- مَوَاقِفَ حَصَلَتْ فِي زَمَنِ الرَّسُولِ، وَالآيَاتُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ. قَدْ كَانَ لَهُ تَرْتِيبٌ بِالنُّزُولِ يُخْتَلِفُ عَنْ تَرْتِيبِ الكِتَابِ (المُصْحَفِ) المَوْجُودِ بَيْنَ أَيْدِينَا حَالِيًا، وَلَا نَعْلَمُ مَتَى انْتَهَى تَنْزِيلُ القُرْآنِ، وَقَدْ يَكُونُ تَنْزِيلُ القُرْآنِ كَانَ فَقَطْ فِي رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ، وَهَذَا الرَّاجِحُ عِنْدِي.

أَمَّا الكِتَابُ فَقَدْ نَزَلَ دَفْعَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ القَدْرِ، الَّتِي لَا نَعْلَمُ مَتَى هِيَ، وَلَا نَعْلَمُ حَتَّى إِنْ كَانَتْ فِي رَمَضَانَ. فَالخَلْطُ بَيْنَ الآيَاتِ الَّتِي تَتَكَلَّمُ عَنِ القُرْآنِ وَالآيَاتِ الَّتِي تَتَكَلَّمُ عَنِ الكِتَابِ أَدَّتْ لِلِاعْتِقَادِ بِأَنَّهُ نَزَلَ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ.

هَذَا الكِتَابُ نَزَلَ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَأَيْضًا بِوَحْيٍ خَاصٍّ، وَلَكِنْ عَلَى قَلْبِ الرَّسُولِ. ثُمَّ بَدَأَ الرَّسُولُ بِكِتَابَتِهِ وَتَدْوِينِهِ، وَلَا نَعْلَمُ مَتَى بَدَأَ ذَلِكَ تَحْدِيدًا. وَلَهُ تَرْتِيبٌ خَاصٌّ يُخْتَلِفُ عَنْ تَرْتِيبِ القُرْآنِ، وَتَرْتِيبُهُ هُوَ تَرْتِيبُ المُصْحَفِ المَوْجُودِ بَيْنَ أَيْدِينَا الآنَ، وَالَّذِي يُفْتَتَحُ بِسُورَةِ الفَاتِحَةِ، وَالَّتِي سُمِّيَتْ بِـ "فَاتِحَةِ الكِتَابِ"، وَلَمْ تُسَمَّ بِـ "فَاتِحَةِ

القُرْآنِ". وَالكِتَابُ وَالقُرْآنُ مُحْتَوَاهُمَا الذِّكْرُ، بِيدَ أَنَّ القُرْآنَ هُوَ الصِّيغَةُ المَقْرُوءَةُ، وَالكِتَابُ هُوَ الصِّيغَةُ المَكْتُوبَةُ.

وَلِمَنْ يَسْأَلُ هُنَا: كَيْفَ يَكُونُ الكِتَابُ صِيغَةً مَكْتُوبَةً وَهُوَ قَدْ نَزَلَ عَلَى قَلْبِ الرَّسُولِ؟

نَقُولُ هُنَا: إِنَّ الكِتَابَةَ لَا تَعْنِي قَلَمًا وَوَرَقًا، فَنَحْنُ نَعْلَمُ الآنَ أَنَّ القَلَمَ وَالوَرَقَ مَا هُمَا إِلَّا وَاسِطَةٌ. فَإِذَا كُنْتَ أَحْفَظُ ذِكْرَيَاتٍ مُعَيَّنَةً مِنْ صُوَرٍ وَمَوَاقِفَ، فَهِيَ مَكْتُوبَةٌ فِي دِمَاغِي، أَوْ مَا سَمَّاهُ القُرْآنُ "القَلْبَ". وَلَدَيْنَا الآنَ كُتُبٌ إِلِكْتْرُونِيَّةٌ مَكْتُوبَةٌ عَلَى الكُمْبْيُوتَرَاتِ بِطَرِيقَةٍ مُمَغْنَطَةٍ، وَعِنْدَ اللهِ اللَّوْحُ المَحْفُوظُ الَّذِي لَا نَعْلَمُ كَيْفَ كُتِبَ.

وَمِمَّا أَصْبَحْتُ أَعْتَقِدُهُ -مَعَ أَنَّهُ ظَنِّيٌّ، فَقَدْ يَكُونُ صَوَابًا وَقَدْ يَكُونُ خَطَأً- أَنَّ سُورَةَ الفَاتِحَةِ هِيَ فِعْلًا اسْمُهَا "فَاتِحَةُ الكِتَابِ"، وَلَمْ تُسَمَّ "فَاتِحَةَ القُرْآنِ"، لِأَنَّهَا فِي بَدَايَةِ الكِتَابِ، وَلَمْ تَكُنْ فِي بَدَايَةِ نُزُولِ القُرْآنِ. وَقَدْ تَكُونُ - وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ قُرْآنًا مَعَ مَا تَنَزَّلَ مِنَ القُرْآنِ، وَلَكِنَّهَا نَزَلَتْ فَقَطْ حِينَ نَزَلَ الكِتَابُ كَامِلًا وَيَحْتَوِيهَا. وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّنَا وَبِلَا شَكٍّ عِنْدَمَا نَقْرَأُهَا تُصْبِحُ قُرْآنًا. وَمِنْ هُنَا قَدْ نَسْتَنْتِجُ أَنَّ الآيَةَ فِي **سُورَةِ الحِجْرِ: وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾.**

قَدْ نَسْتَنْتِجُ أَنَّ الفَاتِحَةَ هِيَ فِعْلًا السَّبْعُ المَثَانِي. وَيَبْقَى هَذَا المَوْضُوعُ ظَنِّيًّا، وَلَكِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَكْتُبَهُ لِيَكُونَ مَحْوَرًا لِبَحْثٍ لَاحِقٍ لِي أَوْ لِغَيْرِي.

نُكْمِلُ: وَغَالِبُ الظَّنِّ فِي سَبَبِ ظُهُورِ الرِّوَايَاتِ وَالقِرَاءَاتِ المُخْتَلِفَةِ، فَكَمَا أَصْبَحْتُ أَعْتَقِدُ، فَإِنَّ القُرْآنَ وَكَوْنِهِ نَزَلَ عَلَى مَرَاحِلَ، وَحَفِظَهُ المُؤْمِنُونَ وَذَلِكَ قَبْلَ تَوَاجُدِ الكِتَابِ، فَإِنِّي أَرَى أَنَّ بَعْضَ مَنْ قَابَلَ الرَّسُولَ مِنَ العَرَبِ فِي تِلْكَ الفَتْرَةِ وَأَسْلَمَ، ثُمَّ عَادَ إِلَى بَلَدِهِ، أَوْ مَنْ تَرَحَّلَ مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُولِ إِلَى بُلْدَانٍ أُخْرَى قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ الكِتَابُ، كَانَ قَدْ حَفِظَ بَعْضًا مِنَ القُرْآنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الرَّسُولِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَنَقَلَهُ مَسْمُوعًا إِلَى مَنْ هُمْ خَارِجَ جُغْرَافِيَّةِ الرَّسُولِ، فَتِمَتْ كِتَابَتُهُ مَعَ وُجُودِ بَعْضِ التَّبَايُنَاتِ نَتِيجَةَ الِاخْتِلَافَاتِ الطَّفِيفَةِ أَوِ الخَطَأِ فِي الإِلْقَاءِ أَوِ التَّلَقِّي، وَتُمَ تَدَاوُلُ هَذِهِ الكِتَابَاتِ. وَعِنْدَمَا نَزَلَ الكِتَابُ عَلَى مُحَمَّدٍ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-

وَقَامَ بِكِتَابَتِهِ وَتَوْزِيعِهِ عَلَى النَّاسِ وَالبُلْدَانِ، اخْتَلَطَتْ بَعْضُ الكَلِمَاتِ عَلَى النَّاسِ، مِمَّا كَانَ قَدْ كُتِبَ وَوُزِّعَ، وَمِمَّا قَدْ جَاءَهُمْ مَكْتُوبًا مِنَ الرَّسُولِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، فَلَمْ يُتَمْ حَصْرُ أَوْ إِرْجَاعُ وَإِتْلَافُ كُلِّ مَا كَانَ قَدْ كُتِبَ.

وَهُنَا أَيْضًا، فَلَا بُدَّ وَأَنْ نَذْكُرَ أَنَّ سَبَبَ الِاخْتِلَافِ بَيْنَ اللَّفْظِ فِي بَعْضِ الكَلِمَاتِ الَّتِي حَفِظَهَا القُرَّاءُ، وَبَيْنَ الرَّسْمِ المَكْتُوبِ فِي المُصْحَفِ، كَمُفْرَدَةِ "الصَّلَاةِ" وَ"المِشْكَاةِ" وَ"الحَيَاةِ"، أَوْ مَثَلًا الآيَةِ "بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا" الَّتِي تُقْرَأُ "مَجْرِيهَا"، أَوْ مُفْرَدَةِ "إِبْرَاهُمْ" فِي سُورَةِ البَقَرَةِ الَّتِي رُسِمَتْ بِدُونِ يَاءٍ وَتُقْرَأُ "إِبْرَاهِيمَ" قُرْآنًا، وَغَيْرِهَا الكَثِيرِ مِنَ المُفْرَدَاتِ الَّتِي رُسِمَتْ بِشَكْلٍ يُخَالِفُ اللَّفْظَ، بِالإِضَافَةِ إِلَى الأَلِفِ الخَنْجَرِيَّةِ الَّتِي لَمْ نَجِدْهَا فِي أَيِّ مَخْطُوطَاتٍ عَرَبِيَّةٍ سَابِقَةٍ، وَغَيْرِهَا مِنْ خَصَائِصِ رَسْمِ الكِتَابِ. كُلُّ ذَلِكَ وَأَكْثَرُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الكِتَابَ غَيْرُ القُرْآنِ، وَكِلَاهُمَا لَفْظًا وَرَسْمًا تَوْقِيفَانِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَقَدْ حَفِظَهُمَا كِلَاهُمَا، فَالذِّكْرُ مُحْتَوَى كِلَاهُمَا كَمَا شَرَحْنَا مِرَارًا وَتَكْرَارًا سَابِقًا، وَقَدْ تَعَهَّدَ اللهُ بِحِفْظِهِ، **سُورَةُ الحِجْرِ: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾.**

ومن هنا أصبحنا نَفْهَمُ الآيةَ في **سورةِ النَّحلِ: فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾.**

فهٰذا ما حَصَلَ عندما تَبَدَّلَتْ مواقعُ الآياتِ بين القُرآنِ والكتابِ، بسببِ الترتيبِ المُختلِفِ لكلٍّ منهما.

وقبلَ أن نَخْتِمَ هذا الجُزء، لا بُدَّ أن نعودَ إلى نُقطةِ الانطلاق، إلى تلك الآياتِ التي اجتمعتْ فيها كلمتا "الكتاب" و"القرآن" في موضعٍ واحد. فقد كان هذا الاجتماعُ مدخلًا للتأمُّلِ في العلاقةِ بين الثُّبوتِ والتلاوةِ، بين الأصلِ والفَرعِ، بين ما حُفِظَ في أُمِّ الكتابِ وما يُتْلى بلسانٍ عربيٍّ مُبين.

فبعدَ أن أدركْنا أنَّ هذا "الكتاب" المُعَرَّفَ بـ"ال"، إنما يُشيرُ إلى الكتابِ الأصْل، الجامِع، الذي هو في أُمِّ الكتابِ عندَ الله، والذي هو مصدرُ الوحيِ لكلِّ الأنبياءِ، من نوحٍ عليه السلامُ حتى محمدٍ خاتمِ النبيين عليه الصلاةُ والسلام، نستنتجُ **من الآيةِ: "تلك آيات الكتاب وقرآن مبين"** أنَّ ما سيكونُ في هذه السورةِ من آيات،

أو بمعنًى آخر، ما سيُوحى إليكَ يا محمدُ من آيات، هو من ذلك الكتابِ المُبين، الموجودِ في أُمِّ الكتابِ عندَ الله، نَقرؤُه عليكَ قُرآنًا مُفَصَّلًا، ووحيًا مُبينًا، لِتَتْلُوَه على قومكَ، فيَسْمَعوه ويَهتدوا به.

فالقرآنُ إذًا هو تفصيلٌ لذلكَ الكتابِ، تنزيلٌ منه، لا كتابٌ آخرُ مُنفصل، بل استمرارٌ للوحيِ المُتَّصل، وتفصيلٌ للهُدى الواحدِ الذي خُتِمَ بمحمّدٍ عليهِ الصلاةُ والسلام.

من سورة الأعراف: وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾.

سورة هود: الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِير ﴿١﴾.

سورة الزّمر: قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾.

ومعنى "أنزلناه قرآنًا" أي نزل على هذا الشكلِ المقرُوء المُفَصَّل، مع التصريفِ والتكرارِ والتنوُّعِ في البيانِ والأمثال، لا لمجرَّد الإخبار، بل ليُحدِثَ أثرًا في القلوب، وعند تأمُّلِ الآياتِ التي تَفتتحُ بسياقٍ مُزدوجٍ يجمعُ بين "الكتاب" و"القرآن"، نَلْحَظُ نمطًا بلاغيًّا مقصودًا، مليئًا بالدقَّةِ البلاغيَّة. فمثلًا في **سورة الزّخرف: حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾.**

نَرَى الآيَةَ تَبدأ بذِكرِ الكتاب المبين، ثم تُبيّنُ أنَّ هذا القرآنَ العربيَّ الذي يُتلى على النبيّ، هو جعلٌ من ذلك الكتاب، أي أنّه تَفَرَّعَ عنه، وتجلّى منه تلاوةً عربيّةً واضحةً لقومِ محمدٍ عليه الصلاة والسَّلام، بينما الأصلُ ثابتٌ محفوظٌ في "أُمّ الكتاب" عند الله.

وفي **سورة القصص مثلًا: طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾.**

يتكرّر هذا النمطُ، ليُؤكِّد على أنَّ الكتابَ المبين هو أصلٌ جامعٌ محفوظ، يحتوي في جَوفِهِ على كلّ ما يتنزَّلُ على الأنبياءِ من وحيٍ، بما فيه القصصُ والمواعظُ والشرائعُ، وما يتلوه النبيُّ على قومهِ اليوم، ليس إلّا تلاوةً جزئيةً منه، أي قرآن، ولكنها تلاوةٌ مبينةٌ، موثَّقةُ المصدر، صادرةٌ من أصلٍ محفوظ.

وهنا تتجلّى علاقةُ الكتابِ بالقرآن:

• الكتاب: هو الثبوت، المرجع، والوجود في أُمِّ الكتاب.

• القرآن: هو التلاوة، البلاغ، والتجلّي المقرُوءُ المسموع.

وعليه، فكُلّما ابتدأتِ الآياتُ بـ **"تلك آياتُ الكتاب"**، فإنما هي إعلانٌ بأنَّ ما يَتلوه محمدٌ عليه الصلاة والسلام، هو ليس بِدْعًا من القول، بل امتدادٌ وتجلٍّ من نفسِ المصدرِ الذي أُنزِلَ على مَن قبله من الأنبياءِ، وفي ذلك رَدٌّ صريحٌ على من **قالوا: ﴿أساطير الأولين﴾.**

وهذا ما نَفْهمُهُ أيضًا من تنويع الترتيب في بعضِ السُّوَر.

ففي سورة النَّمل مثلًا: طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾.

قُدِّمَ ذِكرُ القرآنِ لأنَّ السياقَ يتناول التلاوة والبيان الذي يُسمع، ثم عُطِف عليه "كتابٌ مُبين" لبيانِ مصدره الثابت، كأن الترتيبَ هنا يخدم السياق، ويعكس مقصدَ السورةِ من تقديم البلاغ أولًا، ثم التّأكيد على الثُّبوت.

أمّا حين يُقدَّم "الكتاب"، كما في الزّخرف أو القصص، فإنّ الهدفَ هو إلقاءُ ثقلِ الرسالةِ منذ أول لحظة، ليفهم السامعُ أن ما يُتلى عليه، ليس تلاوةً عابرة، بل هو صادرٌ عن كتابٍ محفوظٍ، عليٍّ، حكيم، تتنزل آياتُه الآن في شكلِ قرآنٍ عربيٍّ مبين.

ومن هنا، نُدركُ أنَّ هذا التنوُّعَ في الترتيبِ ليس عبثًا، بل هو دلالةٌ بلاغيّةٌ بديعة، تتماشى مع مقاصد السورة وسياقها، وتُرَسِّخُ عند القارئ فهمًا أعمقَ لعلاقةِ الأصلِ والمَرجِعِ بالبلاغِ والتنزيل.

والأهمُّ، أنَّ القرآنَ ليس أمرًا غريبًا على السماءِ، أو جديدًا على النُّبُوّات، بل هو تجلٍّ مُتَجدِّدٌ لذلك "الكتاب المبين"، المعروفِ في الملإِ الأعلى، والمحفوظِ عند الله، والذي في جَوفِهِ ذِكرُ كلِّ شيء، **سورة ص: صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾.**